

العرفاء والمفاضلة بين الكشف والتفكير العقلي

يحيى محمد

يعتبر المنهج العرفاني منهجاً ذوقياً، فهو قائم على تذوق طعم المعرفة؛ مثلما يتذوق الحيوان طعم الأشياء. ففي هذا المنهج يكون التحسس بموضوع المعرفة مباشراً؛ بما يطلق عليه العلم الحضورى. وهو خلاف ما يحصل في حالة التفكير العقلي الذي يجرد الصور من موضوع المعرفة ويؤسس لها علماً خاصاً هو العلم الحسولي الذي ميزته أنه عبارة عن إدراك غير مباشر للموضوع.

فمن العرفاء الذين ميزوا بين العلمين وفاضلوا بينهما الإمام الغزالي، معتبراً أن نسبة علم الذوق إلى علم العقل هي كنسبة الروح القدسي النبوي إلى الروح العقلي. فبهذا الروح الأخير «يدرك المرء المعاني الضرورية البديهية، أما الروح النبوي فهو الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء»، لذلك فهو يؤكد بأن «من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة»^[1]. بل أكثر من ذلك يرى أن الذوق فوق العلم، إذ الذوق وجدان وإحساس، والعلم قياس واستدلال^[2].

كما أن ابن عربي هو الآخر قد مايز وفاضل بين الذوق والعلم العقلي، وذلك من خلال تقسيمه للعلم إلى أقسام ثلاثة: علم العقل وعلم الأحوال وعلم الأسرار. فالأول هو كل علم يحصل ضرورة، أو بعد تفكير ونظر في الدليل، بشرط أن يعرف دليله. ومن الدليل ما هو صحيح، ومنه ما يشابهه من الأدلة الفاسدة. أما علم الأحوال فيتحقق من خلال الذوق، إذ لا يمكن إدراك هذه الأحوال بالدليل، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق... الخ. فهذه العلوم لا تعلم إلا بالاتصاف بها وتذوقها، كما أن الكلام عنها «لا يحتمل البسط وتكفي فيه الإشارة إلى المقصود، ومهما بسط القول فيه أفسدته». «فعلوم الأذواق لا تقال ولا تحكى، ولا يعرفها إلا من ذاقها، وليس في الإمكان أن يبلغها من ذاقها إلى من لم يذوقها. وعليه تتوقف عملية التبليغ على الإصطلاح لإفهام السامع بنوع من الإشارة، وليدل به المتذوق نفسه على ما ذاقه، ليتذكر به إذا نسي في وقت آخر، وإن لم يفهم عنه من لا ذوق له فيه. ولهذه الأحوال أشباهها من جنسها التي تفسد حقيقة الذوق» كمن يغلب على محل طعمه المرة الصفراء فيجد العسل مرّاً» وهو ليس كذلك. أما علم الأسرار فهو العلم الذي عدّه ابن عربي فوق طور العقل، فهو علم نفث روح القدس في الروح، ويختص به كل من الأنبياء والأولياء، أي

العرفاء. ومع هذا فهو ينقسم إلى قسمين: أحدهما يمكن إدراكه بالعقل أو الدليل ولا يتوقف على الكشف الذوقي وحده. أما الآخر فهو على ضربين، أحدهما يعود إلى علم الأحوال وإن كان حاله أشرف منها، أما الضرب الآخر فهو من علوم الأخبار. وفي جميع الأحوال أن العالم بعلم الأسرار عند ابن عربي يكون عالماً ومستغرقاً للعلوم كلها، فليس هناك علم أشرف من هذا العلم المحيط الحاوي على جميع المعلومات، فهو يعلم ما في طور العقل وما فوقه^[3].

كما هناك من اعتبر العلاقة بين المعرفة العقلية والذوقية هي علاقة تقوم في الأصل على تأسيس أحدهما للآخرى، كما هو الحال مع السهروردي الذي جعل من المعرفة الأخيرة سابقة ومؤسسة للمعرفة العقلية، فهو يقسم المعارف إلى معارف فطرية ضرورية، وأخرى كسبية، ويعد الأولى أساس الثانية، إذ بدونها تستحيل المعرفة؛ باعتبارها تمثل البداية اليقينة المشهودة بلا سابق لها ولا دليل عليها^[4].

ان المعرفة في السلوك العرفاني خاصية أساسية وهي أنها تخطر في القلب وتفيض على النفس من دون تعمل فكري ولا استدلال عقلي، فهي تهجم على القلب هجوماً قوياً لا يمكن رده، بل توجب على السالك التسليم لها لكونها من العلوم الحضورية التي تدرك مباشرة. لذلك فحينما سئل العارف الحسين بن المنصور الحلاج عن البرهان قال: «واردات ترد على القلوب، فتعجز النفوس عن تكذيبها»^[5].

فهذه الواردات أو الخواطر هي التي تحقق ما يسمى بالكشف والشهود. فغالباً ما يُعنى الكشف بالاطلاع على المعاني الغيبية من وراء حجاب. أو كما عُرِفَ بأنه حضور القلب في شواهد المشاهدات وعلامته دوام التحير في كنه عظمة الله. كما عُرِفَ الشهود بأنه عبارة عن رؤية الحق بالحق^[6]. وللغزالي تعريف يرى فيه معنى البصيرة والمكاشفة والملاحظة والمعانية بأنها «أسماء مترادفة على معنى واحد، وإنما تحصل التفرقة في كمال الوضوح لا في أصله، فمنزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين، والمعرفة من البصيرة منزلة قرص الشمس لنور العين، فتدرك بذلك الجليات والخفيات»^[7]. وكل ذلك يختلف عن حجاب التفكير العقلي.

^[1] الغزالي: المنقذ من الضلال، حققه وقدم له جميل صليبا وكامل عياد، مطبعة الجامعة السورية، الطبعة الخامسة، 1956م، ص. 88

^[2] مشكاة الأنوار، ضمن الجواهر الغوالي، ص. 137

[3] الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي، جمع وتأليف محمود الغراب، دار الفكر بدمشق، ص169-170

[4] حكمة الإشراف، ضمن مجموعة مصنفات شيخ الإشراف السهروردي، ص.18

[5] كسر أصنام الجاهلية، ص.9

[6] إصطلاحات الصوفية، ص47 و153 وقاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1972م، ص897 و910 و904

[7] الغزالي: رسالة روضة الطالبين، ضمن رسائل فرائد اللآلي، نشر فرج الله ذكي الكردي في مصر، 1343هـ - 1924م، ص164-165